الأمير عبد القادر الإنسان و المجاهد.

الأستاذ / جبـران لعـرج : قسم التاريخ / جامعة سيدي بلعباس.

مقدمة :

أنجب وطننا العزيز عدة شخصيات تفاعلت مع الأحداث فتأثرت بها و أثرت فيها لتصنع لنفسها تاريخا بطوليا جعل منها أسطورة في عالم المجد و الشجاعة.إن سجل الجزائر القديم و الحديث يحمل في طياته أسماء لامعة في حب الحرية تواقة نفسها العزيزة للعيش دائما في كنف الحرية و السلام من أمثال: ماسينيسا، يوغرطة وغيرهم الذين رفضوا دوما الغزاة المحتلين فحاربوهم بكل ما تملكه أنفسهم من قوة و إرادة صلبة.

يعتبر الأمير عبد القادر الجزائري واحد من رجالات الأمة الجزائرية التي بنت لنفسها تاريخا وطنيا جعلها ترقى إلى مصاف الشخصيات الإنسانية و العالمية.الإنسانية بأخلاقها و سماحتها، و العالمية بما خلفته من تاريخ أضاف صفحة في السجل التاريخي العالمي.

لقد استطاع الأمير عبد القادر الجزائري بعبقريته و حنكته السياسية و خبراته العسكرية أن يضع لبنة في تاريخ البشرية و يؤسس لنفسه تاريخا إنسانيا .فكيف استطاعت هذه الشخصية أن تتميز؟ و كيف آن لها أن تكون في فترة من أحلك فترات هذا الوطن، شخصية فذة بارزة في عالم الإنسانية و الجهاد؟ و كيف استطاعت أن تجلب لنفسها احترام و تقدير العدو قبل الصديق؟ و ما علاقة هذه الشخصية مع المحفل الماسوني؟

1/ التعريف بالأمير عبد القادر:

فمن هو عبد القادر يا ترى؟

إننا لن نعرف الحاج عبد القادر أكثر من نفسه فهو يقول:

إنني **" عبد القادر بن محي الدين بن المصطفى بن محمد بن أحمد بن المختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر المعروف بخدة(محشي صغرى السنوسي) بن أحمد القديم بن عبد القادر بن محمد بن محمد بن عبد القوي بن عبد الرزاق بن الغوث الرباني سيدنا عبد القادر الجيلاني بن صالح بن موسى بن عبد الله بن يحي الزاهد بن الإمام محمد بن الإمام داود بن الإمام موسى بن الإمام عبد الله بن الإمام موسى الجوني بن الإمام عبد الله المحض بن الإمام الحسن المثَنَّى بن الإمام الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب."**(1)

2/ من معالم إنسانية الأمير:

كان الأمير عبد القادر إنسانا رحيما فانظر إلى ذلك المشهد العظيم و هو في أوج قوته يعلق وسام الشجاعة لأحد سجنائه بل أكثر من ذلك أقام له حفلا إنه يعلق له وسام الاستحقاق. لقد كان هذا الجندي هو الفرنسي "اسكوفي " و الذي عندما ينقل الأمير عبد القادر إلى فرنسا بأمبواز يطلب أن يلحق بخدمته فحتى الأعداء أحبوا هذه الشخصية و وافوها حقها من الاحترام.

كان من شيمه عدم إعدام العلماء و طلبة العلم لما يراه فيهم من أنهم ثمرة مجهود كبير و طويل لا يحق إضاعته.فكم هي المرات التي عفى فيها عن مجرمين حكم عليهم بالإعدام لمجرد أنهم حملة علم و أنظروا و هو يقول في هذا الصدد: **"...حتى أنني عفوت أكثر من مرة عن أناس مجرمين محكوم عليهم بالموت لمجرد أنهم طلبة،و معروف أن المرء في بلادنا يحتاج إلى وقت طويل حتى يصل إلى مرتبة عالية من التحصيل في العلم،لذلك لم تكن لدي الشجاعة لإضاعة ثمار احتاجت إلى سنوات من الجهد في يوم واحد"**(2).انظروا إلى هذه الإنسانية و هو يعفو و يصفح عن الخونة لمجرد أنه يدرك أن العالم أو طالب العلم هو ملك للإنسانية جمعاء.

مواقف عديدة تبين مدى الحس الإنساني المرهف الذي كانت تجيش به نفس هذا الرجل المقاتل و المجاهد الذي قام بكل واجبه اتجاه وطنه لمحاربة و طرد الغزاة من أرض أجداده.فها هو يتأسف حصرا حين جاءه أحد رجاله برأس خصمه و عدوه 'مصطفى بن اسماعيل' فيقول:**"فاني لا أحب أن يكون مصطفى بهذه الحالة و إنما أحببته أن يأتيني على فرسه حيا مزيل عنا للنكالة"**(3). و لننظر إليه و هو يرعى رعيته و يختار أعوانه ممن توفرت فيهم المقدرة،التقوى والوطنية،كل هذا من أجل الحفاظ

على مواطنيه و اتقاءهم لحظات الجور و الظلم.و ها هو يخصص لخلفائه و أعوانه مرتبات شهرية و عطايا يومية و أسبوعية كل حسب مركزه لاتقاء وقوعهم في الرشوة أو ظلم الرعية.أليست هذه قمة الإنسانية النابعة من تعاليم ديننا الإسلامي.

ما تحتفظ به الذاكرة التاريخية عن الأمير عبد القادر هو سنه لقوانين تدور مواضيعها حول معاملة الأسرى و المعتقلين من الجيش الفرنسي.و من هذه القوانين اعتبار أي فرنسي يتم أسره أسير حرب، وجب معاملته معاملة حسنة.ألم يسبق الأمير عبد القادر معاهدة جنيف في التعامل مع الأسرى؟.فحرم تحريما قاطعا قتل أسير مجرد من السلاح.كما أكد على أي عربي في حوزته أسير فرنسي، أن يحسن إليه.و في حالة شكوى الأسير من سوء المعاملة، فان ذلك سيؤدي إلى عقوبات.و دعونا نستشهد بحادثة تاريخية، فعندما راسل أسقف الجزائر 'ديبوش" الأمير عبد القادر' طالبا منه إطلاق سراح أحد السجناء، رد عليه الأمير **"لقد كان أجدى بك ،بوصفك عبد الإله و صديق الإنسان ليس فقط أن تطلب مني إطلاق سراح أسير واحد بل أن أطلق سراح كل الأسرى المسيحيين"**أليست هاهنا قمة الإنسانية.

من مناقب و أخلاق هذا الرجل أنه كان صبورا مؤمنا و محتسبا فعندما ألقى الأمير "دومال" (ابن الملك لوي فيليب) القبض على زمالة الأمير عبد القادر بتاريخ 16 ماي 1843م (خلفت هذه المجزرة أكثر من 3 آلاف أسير من بينهم سيدي لعرج أول من بايع الأمير، و أحرقت مكتبته التي كان يعتز بها)، لم يندب حظه بل أنظروا ماذا قال: **" إن الله قد أهداكم زمالتي و إنها إرادته "**، و نظم في هذه الفاجعة ما يلي :

و ما نبالي إذا ارواحنا سلمت بما فقدناه من مال و من نشب
فالمال مكتسب و الجاه مرتجع اذا النفوس وقاها الله من عطب (4)

و أنظروا إلى إيمانه الذي يأخذه إلى أبعد الحدود عندما يخاطب الجنرال " دو ميشال " في رسالته المؤرخة بيوم04 فبراير 1834م: **" و نحن و إن كنا ضعفاء على زعمكم فقوتنا بالله... غير أن الموت مسر لنا و إن دوي الرصاص و صهيل الخيل في الحرب لآذاننا من الصوت الرخيم "**(5)، فيا له من إيمان و يا لها من قوة الشخصية.

لقد اتصفت شخصية الأمير عبد القادر بالاتزان، فمن فصاحة اللسان إلى قوة الخطابة، ومن الشعور بكونه إنسانا من واجبه الحفاظ على النفس البشرية إلى قوة الجهاد انطلاقا من حبه لوطنه العزيز.كما كانت سنوات حياته حافلة بتقديم الدروس لأكبر قوة عسكرية في تلك الحقبة التاريخية بل أبعد من ذلك لقد نال احترام و حب العديد منهم الأمر الذي جعلهم يلتحقون بجيشه و يحاربون بني جلدتهم حتى أن شرف الالتحاق به مكنهم من تدريب جنود الأمير العاملين.

<u>3/الأمير عبد القادر في دمشق:</u>

بعد فرنسا و بروسة يستقر المقام بالأمير عبد القادر في دمشق من عام 1856 إلى غاية وفاته عام 1883م.حيث يتبوأ فيها مكانة عالية و مرموقة كرجل سياسي محنك، رجل دين، أديب، شاعر و متصوف، و لأن صيته ذاع في أصقاع المعمورة، فقد شارك في الحياة السياسية و العلمية فكان مدرس بالجامع الأموي و هذا دليل على إنسانية الأمير من جانب و إكمال مسيرة الجهاد من جانب آخر عملا بتعاليم الدين الإسلامي التي تحث على مواصلة الجهاد الأكبر و هو جهاد النفس بعد الفراغ من الجهاد الأصغر و هو جهاد الكفار و المعتدين .

و لما سرى سم الفتنة في دمشق و **"أخذ الصبيان المسلمين يصورون الصليب في الطرقات و يرسمونه على الاوراق و يلقونها في المحلات القذرة".**و لما بلغ الأمير عبد القادر ذلك علم أن العاقبة ستكون وخيمة و إذا وقع في دمشق نظير ما وقع في لبنان **"يجعله الافرنج لا محالة ذريعة لخراب البلاد فتوجه الى الوالي و تكلم معه في ذلك فاجابه ان ما بلغك محض ارجاف من النصارى..."**(6)

و لما كان منطلق 'الأمير عبد القادر' القاعدة الإنسانية يقول ' برونو إتيين'، و عندما بدأت عام 1860 الحرب الأهلية بين الدروز و المسيحيين في لبنان." **كتب عبد القادر عندئذ رسائل عديدة إلى علماء حمص و حماة.و بعد أن أعلم السلطات الفرنسية، أطلع 'عصمت باشا' والي دمشق على مخاوفه، و طلب دعم العلماء الدمشقيين لتهدئة الخواطر، و توجه أيضا إلى الدروز."**(7) و في هذا أرسل رسالة إلى شيوخ الدروز في جبل لبنان و سهول حوران و جبالها يحرص فيها على النصح و الهداية، كما يحملهم

مسؤولية تصدع العلاقة مع الحكومة التركية إن قاموا بالاعتداء على مدينة رخلة.و يؤكد في هذه الرسالة على حرصه على راحتهم و سمعتهم.

و لما تفاقم الوضع في دمشق و كثر الكره و **"ازداد بهذا مرض قلوب سفهاء دمشق فبعثوا الى الدروز يغرونهم على نصارى بلدتهم و يعدونهم بمساعدتهم و يرغبوهم في اموالهم فوعدوهم بالاجابة بعد فراغهم من امر الجبل..."** فوصل الخبر إلى الأمير فوجم له ثم استأذن الوالي**"في طلب مشايخ الدروز الى بعض القرى خارج البلد و الاجتماع بهم ليعظهم و يحذرهم سوء عاقبة ما عزموا عليه فاذن له و خرج اليهم و تكلم معهم بما اثر فيهم و جعلهم يذعنون لنصائحه"**(8) و واعدوه بعدم إثارة الفتنة في دمشق.

و من هنا يتضح و من هذا الموقف أن الأمير عبد القادر كان يتصرف من منطلق عقائدي محض كمسلم صالح أمين متبعا تعاليم رسولنا الكريم صلى الله عليه و سلم في تغيير المنكر بشتى الطرق و الوسائل.

إن إحسان الأمير عبد القادر إلى المسيحيين و إكرامهم و نصرة المظلوم و موقفه المنحاز إلى الحق في أحداث دمشق، جلبت عليه الكثير من الرسائل و النياشين و قصائد المدح التي تقدم بها الشعراء.و لأهميتها في إبراز المناخ السائد آنذاك أردنا أن نذكر البعض منها، فقد أرسل وزير الخارجية الفرنسي رسالة و مما جاء فيها : **" ايها الامير السامي ان خبر الحوادث الشامية قد طرق مسامع الدولة الفرنساوية و اجابة لطاعة مولاي الامبراطور و ارادته بادرت الان باعلان اعتباره السامي و التشكر الوافر من طرف جلالته على السعي الذي تكرمتم به على الاهالي المسيحيين و الراهبات و المبعوثين الفرنساويين و جمهور القناصل...."**(9) كما تبارى الشعراء في مدحه و منهم العالم الناظم الناثر الشيخ إبراهيم الحدب نائب المحكمة الشرعية في بيروت و فيما قاله :

بلؤلؤ الثغر منه كانت ذا فرح فالآن دمعي بالياقوت مرجان
هل تنطفي نار احشائي بزورته و تستكن من الاشواق اشجان
كما بهمة عبد القادر انطفأت في الشام من حادث الايام نيران
شمس من الغرب وافتنا فكان لها في الشرق نور به الآفاق تزدان(10)

كما يمكن أن نبرز مدى تسارع الجمعيات للتشرف بالأمير عبد لقادر و إعلانها له رئيسا شرفيا فمثلا الجمعية المسماة " عمل الخير و إعانة المصابين في البر و البحر" قد بعثت له بهذا النص :

" ان جمعية المصابين المؤلفة من أعيان الامصار و وجوه المدن الشهيرة في فرانسا قد اتفقت كلمتها على ان يكون الامير عبد القادر رئيسا شرف لها و انما فعلت هذا لتؤكد له عظيم اعتبارها لجنابه و جزيل تشكراتها الفائقة لما ابداه من اعمال الخير الجسيمة في سورية سنة ستين و ثمانمائة و بناء على ذلك بعثت اليه هذا الرقيم كالشاهد على عقدها لما اتفقت عليه و ذلك في باريس آخر يونيو (حزيران) سنة احدى و ستين." كما أن الجمعية الأمريكية الشرقية و بناءا على قرار مجلسها أعلنت الأمير عبد القادر عضوا شرف لها تتشرف بذكره و ذلك في الثاني عشر من لوليو (تموز) سنة ستين و ثمانمائة و ألف.(11)

<u>4/ الأمير عبد القادر و الماسونية :</u>

يقول 'الأمير عبد القادر' في أشعاره الصوفية :

فليس يدري الذي أقول غير فَتَى قد جاوز الكون من عَينٍ و من رُتبِ.

كم يقول في رسالة موجهة إلى فرنسا : **" الدين واحد و لو يعيرني المسلمون و المسيحيون إنتباهم لقضيت على اختلاف وجهات النظر بينهم، و لغدوا إخوة في الداخل و في الخارج..."**(12)

يعتقد ' برونو إتيين' أن 'الأمير عبد القادر' تلقى أول رسالة من محفل الشرق الكبير الماسوني (Grand Orient) الكائن مقره بفرنسا و هي عبارة عن تهنئة على تصرفه في أحداث سوريا الدامية(13)، و اعتبرها لقاءه الأول مع هذه الجمعية.و راح الأمير يستمع إلى شروحات عن أهداف الجمعية و نشاطاتها من أحد أصدقائه 'شاهين ماركوس'(14).

كما يذهب ' برونو إتيين' إلى أن اسم 'الأمير عبد القادر' أدرج في جداول محفل سوريا، و هذا حسب الشهادة التي استقاها من أحد الماسونيين الأمريكيين 'روبير موريس'، إلا أنه لا يوجد برهان و دليل على حضوره الاجتماعات، و هذا دليل قاطع على عدم الانتساب بل ربما تعاطف نابع من سماحة الإسلام و التعاطي مع جميع الأديان و المعتقدات و الأطياف و الحركات.و لعل ما يؤكد كلامنا هذا على أن موقف 'الأمير عبد القادر' ينبع من رحم الإسلام و تعاليم رسولنا العظيم، هو جوابه على الرسالة التي بعثها إليه البطل القوقازي 'محمد شامل' حين يؤكد له أن تصرفه و حمايته للمسحيين مرده عواطفه الشريفية و بشعوره كحام لأهل الكتاب، " **حماية أهل الذمة و العهد...و الذب عن أنفسهم و أعراضهم بقدر الطاقة و الجهد...** "(15)

و لما كان 'الأمير عبد القادر' إنسانا متصوفا تتوق نفسه إلى السمو في درجات العلى فقد أكد في نفس خطابه الموجه لمحمد شامل أن الإسلام دين تسامح و رحمة و رأفة عندما يقول أنه : "**...حتى صار من يظن من لا علم له أن أصل دين الإسلام: الغلظة، و القسوة، و البلادة، و الجفوة...**"(16).فكان هذا تأكيدا صارخا على رسالة المسلم في نشر الإسلام و إيصاله بالطرق الصحيحة و السديدة و أن الإحسان يجلب الامتنان و العطف.و أن عبقرية 'الأمير عبد القادر الجزائري' تكمن في الحفاظ على العهد و صيانة المواثيق و هذا ملزم علينا بالكتاب و السنة النبوية الشريفة.

و من بين الاثنى عشر ألف و خمسمائة مسيحي الذين أنقذهم من الموت،(17) "**وجد الرهبان العازاريون، و راهبات المحبة و تلاميذهم الأربعمئة. و كان منظرا رائعا مرور موكب سليل النبيّ و هو يسير محاطا بالكهنة و الراهبات و الأولاد الذين اقتلعهم من الموت...**" (18) و لما طالب الحشد الهائج الأمير عبد القادر بتسليمهم المسيحيين اللاجئين عنده خاطبهم قائلا : " **آه ! يا إخواني ! إن تصرفكم خارج عن الدين.أنكون في يوم جهاد ليحق لكم قتل الناس؟ إلى أي درجة من الضعة قد هبطتم، لأنني أرى مسلمين تلوثت أيديهم بدماء النساء و الأطفال.** "(19)

و أمام هذه المواقف الإنسانية للأمير و تعامله بسماحة الإسلام مع المسيحيين و إنقاذ الأبرياء من الناس طلب محفل هنري الرابع من معلمهم الكبير 'مورا' منحهم الرخصة لمنح الأمير الرتب الرمزية الثلاثة.و بما أن الأمر يتعلق بشخصية لا يمكن مطالبتها بالمجيء إلى باريس لحضور حفل المسارة. و بعد طرح الأسئلة على الأمير و التي أجاب عليها برسالة سابقة لشهر ماي 1861 و بسبب الأزمة التي حدثت داخل محفل الشرق الكبير و التي كانت نتيجتها تغيير و استبدال المعلم 'مورا' بشخصية 'المارشال مانيون'، تقرر رفض مسارة الأمير عبد القادر بالمراسلة كما كان مقررا امتثالا لقواعد النظام مقترحين بمنح الصلاحيات اللازمة لثلاثة من الإخوة برتبة معلم ليذهبوا لزيارة الأمير عبد القادر. و لكن محفل 'هنري الرابع' مال إلى حل آخر، فقد كان يعلم أن الأمير يتوجه مرارا إلى الحج و الاعتكاف بمكة و المدينة و يتوجب عليه، في غدوه مثل رواحه المرور بمدينة الإسكندرية، فكاتب إذن محفل 'الأهرام' بالإسكندرية بترقب مروره بهذه المدينة و اتخاذ الإجراءات من أجل إقامة "المسارة" بالتفويض.و قد سنحت الفرصة المرجوة في شهر جوان 1864.

توقف الأمير بالإسكندرية بعد قضاء 16 شهرا في العبادة و التأمل و الاعتكاف، و اعتبارا لطول المدة التي مكثها في البقاع المقدسة يتساءل 'محمد الشريف سحلي' أين و متى و كيف استطاع المحفل الاتصال به و الحصول منه عن موافقته لإجراء المسارة؟(20) و نشاطره الرأي في هذا التساؤل المشروع، فمسارة من هذا النوع و لشخصية بحجم شخصية الأمير عبد القادر يجب أن تتوافر على الوقت الكافي و الإجراءات الضرورية لإنجاحها.

إن 'ياكونو' يقتصر في مقاله على وصف مختلف مراحل الحفل الذي تم في 18 جوان 1864 و بموجبه أعلن عن عضوية الأمير عبد القادر في محفل هنري الرابع الماسوني.و بعد علم هذا المحفل بالخبر كاتب الأمير ليهنئه و يقترح عليه العضوية في محفل الأهرام و قد أجاب الأمير برسالة(21)لم يذكرها 'ياكونو' أبدا في مقاله، و قد ذكر منها محمد الشريف سحلي مقتطفا منها: "**علمت أن قواعد جمعيتكم النبيلة تتمثل في الرغبة في أن تكون لعباد الله و أن تبعد عنهم كل ما يضرهم و أن يكون سلوكهم مطابقا لقواعد المساواة و الأخوة بين الناس و هذه هي مشيئة الله التي طلب من كل**

عباده إتباعها و التي أظهرها على لسان أنبيائه..."(22) و بحسب ظننا لو كان الأمير عبد القادر عضوا في الجمعية كما تصورها الكتابات الماسونية لما خاطبهم مستعملا لفظ "جمعيتكم" و لا كان الأجدر به أن يقول "جمعيتنا".و ما يؤكد قولنا هذا هو غياب الأمير عبد القادر عن الحفل الرسمي الذي نظم على شرفه يوم 1 سبتمبر 1864 و كلف بعض الإخوان للنيابة عنه، و قد ألقيت بالمناسبة عدة خطب تقليدية منها خطبة 'ديبوك' (خطيب المحفل) و التي ذكر منها 'ياكونو' جزءا و هو كالتالي:

" إخواني...إن ما ارتأيناه قبل كل شيء من هذه المسارة هو أن نتوصل بواسطة الأمير إلى إنشاء محافل من الأهالي في المشرق، إن الهدف النهائي (الذي نرمي إلى تحقيقه) هو التجديد الاجتماعي للسلالة العربية..."(23) لاحظ ها هنا عندما يتحدث عن الأهالي في المشرق ثم يردف قائلا السلالة العربية و كأننا أمام جنرال عسكري يخطب أمام جيشه محفزا لهم و مؤكدا بأنهم سيجلبون الحضارة إلى المشرق.غير أن 'ياكونو' لم يذكر فقرة من هذا الخطاب ربما بالنسبة إليه ليست لها أهمية و ربما كانت هي أساس تحليلنا في هذا الموضع و هي عندما يتحدث الخطيب قائلا: **" أن ما رأيناه من خلال هذه المسارة التي نكرسها اليوم بعد أن سعينا طويلا إلى تحقيقها هو أن تعزز الماسونية في المشرق مهد الجهل و التعصب، إنها راية التسامح وضعت بين أيادي محترمة و عهد بها إلى ساعد أثبت جدارته، و إذا ما رفعت من طرفه – و هذه هي أغلى أمانينا- فإنها سترفع على أعلى المساجد قبالة رأية النبي، إن الأمير الماسوني هو بالنسبة لنا بمثابة وتد نوغله في صخرة البربرية."**(24) عندما نمعن التمحص و التبصر في هذه الفقرة، فماذا نلمح؟

أولا: الأهداف الحقيقية للماسونية في المشرق خاصة و العالم الإسلامي عموما (قبالة راية النبيّ عليه أزكى الصلاة و السلام).

ثانيا: عدم التأكد من قبول الأمير هذه الراية في قول الخطيب **"و إذا ما رفعت من طرفه"** و كذلك في **"و هذه هي أغلى أمانينا"**، فالمسألة كلها تبقى آمال و مجرد أحلام.

ثالثا : تذكرنا هذه الفقرة و بخاصة جملة **"وتد نوغله في صخرة البربرية."** بالخطابات الاستعمارية التي استعملها الجنرالات و السياسيون على مختلف توجهاتهم لحشد همم جنودهم و شعوبهم من أجل إنجاح الحركة الاستعمارية، فنتذكر مثلا 'فيكتور هيجو' في قوله " **إن فرنسا بصدد نظم قصيدة رائعة عنوانها "استعمار أفريقيا- فهي لا تلجأ إلى الحرب إلاّ في حالة ما إذا كانت لازمة للحضارة- و ما يطمئنها و يهدئ بالها هو علمها بأنها تحمل في يدها النور و الحرية، و هي تعلم أن احتلال شعب متوحش من طرف فرنسا يعتبر بالنسبة إليه بداية تحرره..."**(25)

و في رحلة الأمير عبد القادر إلى أوروبا سنة 1865، **قام جدل بين الماسونيين هزئت منه صحافة اليمين لأن الأمير لم يحضر الاحتفال الماسوني الذي أعد له.**(26) و أرسل المترجم 'قابو' رسالة مؤرخة بيوم واحد قبل الاجتماع ، يؤكد فيها أن موعدا آخر منع الأمير من الحضور.(27) لكنه استقبل في 28 أوت بقصر أمبواز وفدا ماسونيا و قد كان الأمير مصحوبا بقنصل فرنسا بدمشق و مترجمه السوري الماسوني 'شارل قابو' و ببعض الجزائريين، و يكون حسب رواية ماسوني أن الأمير قد أجاب عن خطابين ألقتهما شخصيتان ماسونيتان، فأثنى ثناءا مبالغا فيه على الماسونية فقال: **" إنني أعتبر الماسونية مؤسسة في الطليعة في العالم و في رأي أن كل رجل لا يمارس العقيدة الماسونية يكون ناقصا، أملي أن تعم ذات يوم المبادئ الماسونية العالم كله..."**(28) لكن 'ألفريد قابو' (أخ شارل قابو و مؤلف كتاب الأمير عبد القادر بأمبواز عام 1898) لم يسجل حتى المسارة بالإسكندرية و اقتصر على الإشارة إلى أنه أثناء زيارة أمبواز سنة 1865 حضر وفد ماسوني إلى الأمير و ألقى عليه خطابا لم يفهم منه شيئا.و شهد شاهد من أهلهم.

ثم أعلم 'قابو' محفل هنري الرابع بباريس أن الأمير سيؤدي لهم زيارة بتاريخ 30 أوت 1865، فنظم اجتماع حضره ممثلو محفلين باريسيين آخرين. و كان جوابه على الأسئلة المتنوعة التي طرحت عليه على النحو الآتي: "يسيء السكان الظن بالفرانماسونية في الشرق، و ينظرون إلى الماسونيين عامة كأشخاص كفار، لا يتقيدون بشريعة، و مستعدين لإشاعة الفوضى في المجتمع، و قد كنت أشاطرهم هذا

الرأي قبل قراءتي لمبادئ الفرنماسونية، و بعد أن تعمقت في دراسة أهدافها و شرائعها اقتنعت بأنها من أروع المؤسسات على الأرض.

- هل تعتقد أن بإمكانك نشر الماسونية في هذه المناطق؟

- إن الشعوب غير متهيئة بعد لها، بل و أعتقد أن من المتعذر حاليا إقامة اجتماع في البلاد التي أسكنها.فالاجتماعات السرية ممنوعة قطعا، و يلاحق الأشخاص الذين يحضرونها، و لولا اعتمادي أنا شخصيا على القوى الأوروبية لغدت حياتي في خطر."(29) أكد الأمير عبد القادر بدون أي التباس أن الماسونية غير مقبولة في الشرق و أنه غير ممكن بالنسبة إليه أن يعمل على نشرها في تلك المنطقة.(30) و ربما هذا اللقاء قد وضع حدا للعلاقات بين الأمير و الماسونية، و قد كتب 'ياكونو' أن الأمير بعد رجوعه إلى دمشق لم يسمع أحد عنه إلا قليلا.وهذا ما يذهب إليه 'برونو إتيين' و وفقا لما يعرفه عن الأمير عبد القادر بالقول بأن: "**روابطه مع شرق فرنسة الكبير كانت منفصمة بل و غير موجودة، و لا أعلم شيئا عن نشاطه الماسوني في الشرق الأوسط إلاّ انه مسجل في سجل محفل سورية في دمشق...**"(31) إن هذا النشاط المحدود مكن من إدخال تصور آخر يوحي بتطور حصل عند الأمير عبد القادر و الماسونية و يكون تفسير ذلك أن الأمير انخرط في الماسونية بسبب طابعها الروحي و انفصل عنها حينما حذفت من قانونها الداخلي المادة التي تسلم بوجود الله و بخلود الروح و التي لا تتناسب مع فكر الأمير و عقيدته الإسلامية. و الملاحظ هنا ما إذا كان الأمير عبد القادر علم بتطور الماسونية قبل قراره النهائي فإنه لا يغير شيئا من الحقيقة.كما أن هناك حقيقة تاريخية تفرض نفسها بقوة و هي أن المقاطعة حدثت سنة 1865 بينما تعديل قوانين الماسونية لم يحدث إلاّ سنة 1877.كما أن الأمير عبد القادر عاد إلى باريس سنة 1867 لزيارة المعرض الدولي و لم يذكر أي مصدر ماسوني أو غيره أدنى اتصال بينه و بين محفل هنري الرابع، و هذا ما يؤكد النتيجة السابقة.

في اعتقادنا أن الأمير عبد القادر الجزائري عبر الماسونية يتوجه إلى جميع البشر " على الإنسان أن يحب ذاته في آخر غيره." و بما أنه من أمة محمد صلى الله عليه و سلم التي قال فيها الله سبحانه و تعالى " لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، و يأمرون بالمعروف، و ينهون عن المنكر، و أولائك هم المفلحون."(32) فإنه يقوم بذلك على أكمل وجه و صورة ممكنة.

كما أنه باعتباره معلم حصلت لديه ملكة التعليم و توجيه الناس بإرشادهم و النصح لهم فهو يمتثل لقول الله تعالى : " و أما بنعمة ربك فحدث"(33)، و بما أن الأمير عبد القادر كان يعتبر نفسه مكلف بصريح الكتاب و السنة النبوية عن نشر تعاليم الدين الإسلامي و إبلاغه إلى أقاصي الأرض، فهو مكلف بأن يحمل البركة الإسلامية إلى الغرب.(34) و عليه كان هدفه أن يناقش جميع الناس و يجري المناظرات و المقابلات، فعظم شخصية هذا الأمير لا تكمن في كونه محاربا جسورا أو مجاهدا وفيا أو فقيها ملما و إنما كما قال 'برونو' هو "عارف عليم مستلهم يرتضي إعادة افتتاح أبواب التأويل."(35)

أمر آخر يدل على إنسانية الأمير هو استعماله لمرتبه الشهري و عائدات الأراضي الشاسعة في الإنفاق على المشاريع الخيرية و على كل من يأتيه سائلا المساعدة المادية. من هذه الأحداث الصغيرة من حياة الأمير عبد القادر الجزائري يتضح جليا مواصلته لحياة الكفاح المختلفة الأساليب، فمن كفاح الاستعمار إلى كفاح الجهل في المسجد الأموي إلى كفاحه ضد الظلم و نصرة الفقير و المحتاج و محاولاته المكررة و المتواصلة في ما يسمى حاليا حوار الأديان و الحضارات .

الخاتمة:

بعدما استقر المقام بالأمير عبد القادر الجزائري كمدرس في جامع الأمويين بدأ حربا جديدة و هو لا يتجاوز 40 سنة من عمره و هذه الحرب سوف ينتصر فيها لأنه سوف يكون ملهم العديد من الكتاب و موضع دراسة العديد من المؤرخين بل سيصبح فيما بعد أسطورة تاريخية إلى جانب عظام الشخصيات التاريخية مثل: يوغرطة.

لقد استطاع' الأمير عبد القادر' بعبقريته الفذة و بإخلاصه لدينه و وطنه أن يلهم الهمم و يبث فيها الحماس و الشجاعة إلى درجة أنها لم تعد تحس بالخطر يقترب إلا و تجري لتعانقه بكل شغف.و استطاع بإنسانيته التي تخطت كل حدود أن يكسب مودة الصديق و إعجاب العدو حتى أننا نرى ذلك الجندي

الفرنسي يهرول إلى حكامه طالبا منهم أن يكون في خدمة الأمير عندما سجن بفرنسا.لقد عاشت هذه الشخصية كبيرة في سجنها و عاش سجانوها صغارا و هم في أوج قوتهم و انتصاراتهم.

كما أنه و من خلال هذا العرض البسيط لا يوجد برهان و دليل على حضور الأمير عبد القادر اجتماعات الماسونية، و هذا دليل قاطع على عدم الانتساب بل ربما تعاطف نابع من سماحة الإسلام و التعاطي مع جميع الأديان و المعتقدات و الأطياف و الحركات.و أن عبقرية 'الأمير عبد القادر الجزائري' تكمن في الحفاظ على العهد و صيانة المواثيق و هذا ملزم علينا بالكتاب و السنة النبوية الشريفة.

إن جزمنا بأن ما يدعيه 'ياكونو' في كون الأمير عبد القادر قد انتسب إلى الجمعية الماسونية فإن هذا من قبيل آمال هذه الجمعية التي كانت تتوق لرؤيته عضوا فيها.و لا حرج أن نجد اسمه مدرجا في قوائمها فقد حذت في ذلك حذو العديد من الجمعيات التي أعلنته عضوا شرفيا لها بدون حتى أن تستشيره أو أن تأخذ رأيه في ذلك جمعية " عمل الخير و إعانة المصابين في البر و البحر" بفرنسا و الجمعية الأمريكية الشرقية التي كانت تعنى بكتابة تاريخ العالم.

يمكننا من خلال العرض البسيط لجوانب من حياة الأمير عبد القار الجزائري أن ندرك مدى فاعلية هذه الشخصية في الحياة الإنسانية فلعل إدراكه المسبق من خلال تعاليم الدين الإسلامي جعله يرقى بنفسه إلى ضرورة بعث حوار الأديان و الحضارات.

الهوامش :

1/ محي الدين، (عبد القادر)، مذكرات الأمير عبد القادر (سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849)، تحقيق محمد الصغير بناني و محفوظ سماتي و محمد الصالح ألجون، شركة دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع، الطبعة السادسة، الجزائر، 2010، ص 46.

2/ بلغيث، (محمد الأمين)، تاريخ الجزائر(دراسات و وثائق)، دار ابن كثير، بيروت، ط2،2007م، ص27.

3/ نفسه، ص30.

4/ محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر، الجزء الأول، سيرته السيفية، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903، ص 281.

5/ العسلي، (بسام)،'الأمير عبد القادر الجزائري'،ط3، دار النفائس،1986، ص 86-87.

6/ نفسه، ص 92- 93.

7/ برونو،(إتيين)، الأمير عبد القادر الجزائري، ترجمة ميشيل خوري، دار عطية للنشر، لبنان، ط1، 1997، ص 309.

8/ محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر، الجزء الثاني، سيرته القلمية، المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903، ص 93.

9/ نفسه، ص 98.

10/ نفسه، ص 102.

11/ نفسه، ص 112.

12/برونو،(إتيين)، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص 348.

13/ الأحداث الدامية بدأت يوم الاثنين 9 جوان 1860 على الساعة 2 ظهرا و توقفت يوم الاثنين 16 جوان، و قدرت الخسائر البشرية بحوالي 8 آلاف شخص.

14/ من أصول لبنانية، ماسوني مسؤول عن محفل فلسطين في بيروت.

15/ برونو،(إتيين)، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص 351.

16/ نفسه، نفس الصفحة.

17/ يذكر شارل شرشيل أن الأمير عبد القادر أنقذ من الموت 15 ألف روح.أنظر : Charles Henry Churchill, La vie D'ABD EL KADER,4e édition, entreprise national du livre, Alger, 1991, p 316.

18/ برونو،(إتيين)، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص 375.

19/ نفسه، نفس الصفحة.

20/ الشريف سحلي، (محمد)، الأمير عبد القادر أباطيل فرنسية و حقائق جزائرية، تعريب حبيب شنيني، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2003،ص 27.

21/ الرسالة ترجمها ماسوني يدعى ج.أوبيرت أستاذ في اللغة السنسكريتية.

22/ الشريف سحلي، (محمد)، الأمير عبد القادر أباطيل فرنسية و حقائق جزائرية، المرجع السابق، ص 27-28.

23/ نفسه، ص 28.

24/ نفسه، ص 29.

25/ نفسه، ص 34.

26/ برونو،(إتيين)، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص 405.

27/ الشريف سحلي، (محمد)، الأمير عبد القادر أباطيل فرنسية و حقائق جزائرية، المرجع السابق، ص 30.

28/ نفسه، ص 29.و قد جاء برونو إتيين بنفس التصريح و لو أنه يختلف في بعض التراكيب و هو على النحو الآتي : "أدلى إليهما بتصريح شبيه بالتقريظ :" إني أعتبر منظمة البنائين الأحرار(الماسونية) كأول مؤسسة في العالم، أرى أن كل رجل لا يجاهر بالعقيدة البنائية (الماسونية) يعدُ رجلا ناقصا، و أؤمل يوما أرى فيه انتشار مبادئ الفرنسماسونية في العالم..."أنظر: برونو،(إتيين)، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص 405.

29/ نفسه، ص 405- 406.

30/ الشريف سحلي، (محمد)، الأمير عبد القادر أباطيل فرنسية و حقائق جزائرية، المرجع السابق، ص 31.

31/ برونو،(إتيين)، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص 405.

32/ آل عمران، الآية 104.

33/ سورة الضحى، الآية 11.

34/ برونو،(إتيين)، الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص 407.

35/ نفسه، نفس الصفحة.